

قصص الأطفال: سؤال الجنس وإشكالية المصطلح

Children's Stories: The Question of Genre and the Problem of Terminology

العربي شارني*

¹المعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات بالكاف، (تونس).

arbicherni278@gmail.com

تاريخ النشر: السداسي الثاني 2025

تاريخ المراجعة: 2025/11/02

تاريخ الإيداع: 2025/10/10

ملخص:

يرسم هذا المقال الحدود المفهومية لقصص الأطفال أو القصة الموجهة للطفل في علاقتها بالأجناس المشكلة لها باعتبارها جنسًا آخذًا في الاستقلال ينحُت ملامحه بتركيز أهم خصائصه وسماته الجوهرية لاسيما وأن قصص الأطفال اليوم هي منهل ثقافي ووسيلة من الوسائل التربوية الفاعلة ذات الدور البارز في عملية تنشئة الطفل وتنمية زاده القيمي. فهي تطرح مُمكنًا مجاليًا موزعًا بين الحيز النصي وزمن القراءة لتنمية وعي هذا الطفل المتلقي وتطوير إدراكه الاجتماعي. وما طرحنا لهذا المبحث إلا للتعريف بالقصة أولاً وبمختلف الأجناس القصصية التي تدخل ضمن حيزها وكذلك مجمل السمات والمقومات التي تفصل كل جنس قصصي عن نظيره، حتى يتسنى لنا الاستفادة من ذلك لاحقاً في مفهمة القصة الموجهة للأطفال أو بالأحرى لتحديد مفهومها وضبط خصائصها بشكل واضح يجسّد رؤية البحث في محاولته التأسيس لمعرفة بقصص الأطفال.

الكلمات المفتاحية: القصة، الحكاية، الأقصوصة، الرواية، قصص الأطفال.

Abstract:

This abstract delineates the conceptual scope of children's stories— or stories directed to children— compared to other similar genres. Children's stories are considered an independent literary form, forging its own identity and establishing its essential characteristics. Undeniably, children's stories are not only a cultural artifact, but also an instructive medium, which makes them indispensable to child upbringing and the development of their moral background. Thus, children's stories enable a contextual domain that interweaves the textual domain and the time of reading, thereby cultivating recipient children's awareness and developing their social perception. This article seeks first to define children's stories and germane narrative genres. Second, it seeks to identify the core components distinguishing various narrative genres. Such distinctions would help conceptualize children's stories and clearly identify its defining features, thereby reflecting the research's attempt to foster an understanding of children's stories.

Keywords: story, tale, short story, novel, children's stories.

* العربي شارني

تقديم:

مثلت القصة بمختلف أنواعها مشغل الدارسين على امتداد زمن التعرف إليها بوصفها قضية بحثية، حتى أن الكتاب والأمر نفسه بالنسبة إلى النقاد والدارسين أصبحوا يطلقون على أنفسهم تسميات تحيل على الاختصاص في جنس معين من الكتابة القصصية. وكل ذلك دليل على رواج فنّ القصة وانتشاره الواسع، ثم إن هؤلاء الدارسين الذين سبقت الإشارة إليهم، قد أسسوا على امتداد عهود من الاشتغال على القصة لما يُعرف بعلم السرد أو السرديات الذي يتناول كل فنون الحكى أو القصّ ويؤطر دراستها عبر قائمة من المفاهيم. وضمن هذا التنوع، فإنّ مجال القصة يتسم بالسعة والامتداد إلى أنماط خطابية متعددة، ولعلّ مظهر ذلك ما يمكن أن يتحدّد بحسب الفئة العمرية التي إليها تتوجّه القصة، بمعنى أنّ المعيار هو نوع الجمهور. ثمّ إنّ هذا من شأنه أن يدفع بالنقاش إلى الخوض في كلّ ما له صلة بقصص الأطفال باعتبارها مداراهتمام البحث المركزي.

ويزداد الإحراج المعرفي في هذا السياق بمجرد الانتباه إلى أنّ القصة الموجهة للأطفال ليست مجرد عمل سردي للطفل الذي يمكن اعتباره الحلقة الضعيفة في المجتمع وأقصى نهايات الطلب إمتاعه بما يقرأ لا سيما وأنّ القول بمكانة الطفل وأهمية ما يقدم له من الأمور القارة في اعتبار كثيرين. بيد أنّ الحديث عن القصة الموجهة للطفل لا يجب أن يحجب الحديث عن القصة بما هي جنس جامع، فإن كانت الجهة مدار النظر في قصص الأطفال الغرض أو الفئة المستهدفة بفعل التلقي فإنّ التعامل مع القصة يجب أن يكون من جهة الأجناسية.

وهذا ما يقتضي التعريف بالقصة أولا وبمختلف الأجناس القصصية التي تدخل ضمن حيّزها وكذلك مجمل السمات والمقومات التي تفصل كلّ جنس قصصي عن نظيره، وفي هذا إحالة واضحة على أطروحة أنّ القصة الموجهة للأطفال قد تستوعب في داخلها مجموعة من المقومات المأخوذة على سبيل الاستعارة والتوظيف من أجناس القصة المختلفة كقصر المدى النصي عن الأقصوصة أو القصة القصيرة في تعبير آخر أو وحدة الانطباع ووحدة الشخصية ضمن السياق نفسه أو سمة تعدد الأماكن والأزمنة عن جنس الرواية وغيرها من أشكال الاستعارة.

إنّ هذا يشرّع إلى طرح الأسئلة التالية:

ماهي القصة وما هي الأجناس المنضوية تحتها؟ وفيّم تفرق هذه الأجناس الدنيا بعضها عن بعض؟ وبأيّ معنى يمكن التأسيس لمقومات ذات طابع أجناسي لقصص الأطفال؟

1/ القصة والحكاية: هل أنّ كلّ قصة حكاية أو العكس؟

إنّ القصة من الناحية التاريخية أدبٌ مسموع قبل أن يعرف الطفل القراءة والكتابة.¹ ولهذا المصطلح مفاهيم عديدة تداولها منظرو السرديات والكتابة القصصية، فهي "ملفوظ قصصي بمعنى الخطاب القصصي، يكون شفويا أو مكتوبا وينقل حدثا أو سلسلة من الأحداث." والقصة تكون بمعنى "الحكاية التي تتمثل في المضمون القصصي الذي قوامه الأحداث واقعية كانت أو متخيّلة." وهي "فعل للقصّ في حد ذاته، أو ما يسمى أيضا سردا."²

والملاحظ في هذه التعريفات بالرغم من اختلاف صيغ التعبير المعتمدة فيها أنّ القصة هي عملية صياغة خطاب بتنسيق معيّن لجملته من الأحداث التي ليست محتاجة إلى أن تكون واقعية أو متخيّلة فالأمران سواء. ومن ثمّ يقدّم هذا الخطاب مشافهة أو كتابة ويسمّى ذلك سرداً أو قصّاً باعتبار أنّ القصة هي فعل ناشئ وليس معطى ما قبليّ.

إنّ هذا الكلام بالرغم من وضوحه البادي فهو يطرح شبهة خلط بين كثير من الأمور لا سيما وإنّ تمتّ المقارنة بين التعريفات معاً ما دامت كلها عن القصة وما تكون. تجدر الإشارة إلى أنّه وردت عبارات الخطاب القصصي والحكاية وفعل القصّ أو السرد. وقد يرى البعض أنّه لا فرق بين هذه العبارات فكثيرة هي الدراسات التي تجعل منها مترادفات لا سيما القصة والحكاية.

لكنّ ما يهم في هذه اللحظة من البحث هو إظهار أنّ القصة هي عبارة عن عملية قصّ أو حكي أو سرد أو نقل لأحداثٍ متخيّلة أو واقعية، ممّا يكون خطاباً جديداً مخالفاً في انتظامه لما يمكن أن يكون مسترسلاً ومُتوالداً بعضه من بعضه لسببيّة ما. وهذا هو المقصود بعبارة الحكاية ولو أنّها في التعريفات السابقة وردت بوصفها مرادفاً للقصة غير أنّ إمعان النظر في التعريف الذي ألحق بعبارة الحكاية مكوّن الأحداث فقط ومهدّ لها بالمضمون القصصي بمعنى المحتوى المراد نقله، يجعل من الزعم الذي ذهبنا إليه ممكناً، فالحكاية هي الانتظام الطبيعي المنطقي السببي للأحداث التي عندما تستحيل قصة يتمّ صياغتها في خطاب يخرق الانتظام الطبيعي ويدخل على العمل الحذف والتقديم والتأخير وغيرها من الوسائل التي يراد بها تحقيق الإمتاع أو التشويق.

وفي مواصلة لتعريفات القصة يمكن الإشارة إلى ما ورد في معجم مصطلحات نقد الرواية من أنّ كلمة قصة تطلق عموماً على سرد وقائع ماضية، ويكون هذا السرد على نحو متماسك من حيث المضمون، ومؤثر من حيث طريقة العرض الفنيّة³. ولئن اختلفت المفاهيم المعتمدة في صياغة تعريفات مصطلح القصة فإنّ البحث الحالي يرشّح ما ذهب إليه "محمد القاضي" في معجم السرديات من أنّ القصة "تقال أو تكتب لتخبر عن الأحداث الجارية في الحكاية، وهي كلام حامل للمضمون القصصي"⁴. وهذا التعريف يتطابق بشكل كبير مع ما فسّرنا به مصطلح القصة والحكاية.

ثمّ إنّ الحسم منهجياً في أمر القصة لا يمنع من تقديم تعريفات أخرى ممّا قد يحتاج له، فانطلاقاً من المفاهيم المطروقة آنفاً، يمكن أن نقدم مفهوماً لهذا المصطلح، فالقصة هي وسيط تعبيرية، يكون إمّا شفويّاً أو مكتوباً، ينقل أحداثاً مختلفة الموضوعات تستمد محتواها من الخيال أو الواقع، له خصائصه القصصية المميزة من حيث الشكل والمضمون. وممّا لا شك فيه أنّ القصة ارتبطت بالطفل لما تتضمنه من أفكار وخيال خصب وحوادث وما تحمله في ثناياها من قيم تربوية تثير اهتماماته وتجذب انتباهه.

2/ الأقصوبة أو القصة القصيرة تجسيدا للوحدة والتكثيف خطابياً:

لقد أنتجت المدونة العربية أجناساً أدبية كثيرة، ولكنها ليست من أنتج القصّة والأقصوصة إنّما هي أجناس دخيلة مستقاة من الحضارة الغربية. ولئن كانت الأقصوصة أو القصّة القصيرة وريثة أشكال سردية موجزة فإنها لم تستو جنساً أدبياً إلا في فترة متأخرة لا تتجاوز القرن ونصف القرن.⁵ حيث اتضحت معالم هذا الجنس القصصي الجديد ونضجت ممارسته وظهرت أولى أعماله في منتصف القرن الماضي في بعض الدول الغربية كروسيا وأمريكا، ثم في البلدان العربية، فظهرت في مصر أولاً وانتشرت في أقطار عربية أخرى لتصل إلى تونس في بداية القرن العشرين.⁶

وقد اختلفت التسمية وتراوحت في غالب الأحيان بين قصّة قصيرة وأقصوصة، وكلاهما معرب عن إما عن الإنجليزية *Short story* أو عن الفرنسية *Nouvelle*. وقد اعتبرت هذه الأخيرة "جنساً أدبياً من درجة ثانية" في الأدب العربي الحديث مقارنة بجنس الرواية.⁷

هذا الجنس الأدبي الجديد لاقي رواجاً كبيراً لدى المنشغلين بفنّ القصّ، واستطاع أن يحتل مكانة متميزة لما اتسم به من مقومات وآليات مخصصة لا تقبل التقسيم والتجزئة جعلت منه كيانه موحداً ونمطاً من الكتابة مستقلاً بذاته. ولفك الغموض عن مفاتيح موضوعنا سنحاول تحديد الخصائص المميزة لهذا الجنس الأدبي.

إنّ القصّة القصيرة أو الأقصوصة هي صيغة تصغير للقصّة، فهي بهذا عمل أدبي مكتوب، قصير الحجم لا تطلب قراءته حيزاً زمنياً متسعاً، له خصوصياته ومميزاته التي تجعله مختلفاً عن باقي الأجناس الأدبية الأخرى والتي لا تقبل التغيير والتعسف.

فالأقصوصة هي "قصّة تصوّر جانباً من الحياة يركز فيه الكاتب فكرة فلا يستطرد ولا يزيد عن المقصود، ويشمل موضوعها كل نواحي الحياة الإنسانية."⁸ فهي التي جعلت لتقرأ بأكملها من البداية حتى النهاية دفعة واحدة. الشّيء الذي جعل منظريها يقصرون لفظ الأقصوصة على الجنس السردى المحدود طولاً وحبكة.⁹ والحبكة نعني بها البناء الحداثي، حيث يتم الاحتكام إلى مدى واقعية النصّ وصدقه إلى جانب الحجم حتى يكون مقياساً من المقاييس المحددة للجنس الأدبي وخصائصه المميزة له. ولعلّ هذا بالتحديد ما ميز جنس الأقصوصة، الجنس الذي اتسم بصياغة سلسلة وتنوع في أنماط الخطاب، فضلاً عن أنّ حجمه المقتضب يلاقي انطباعاً إيجابياً عند المتلقي. كما أنّها تميزت بخصوصيات نجملها في ثلاث هي وحدة الأثر والانطباع ولحظة الأزمة واتّساق التصميم.¹⁰

لكن أبرز ما يميزها هو وحدة الانطباع التي تتركز على وحدة الحدث ووحدة البناء الدرامي ووحدة الشخصية، وكل ذلك لإحداث انفعال وحيد في نفس متلقيها ناتج عن رؤية شخصية رئيسية تستقطب أحداثاً صغرى تساهم في بلورة الحدث الرئيسي وتتضافر لكبحه. "فهي إذن نسق سرديّ مغلق غير قابل للتعدد الذي تختص به القصّة والرواية. وهذه الوحدة لا تقتضي بالضرورة وحدة الزّمان ولا وحدة المكان."¹¹

وهذا يعود أساساً إلى قصر نصّها ونعني به الحجم باعتباره المحدد الأساسي للوقت المستغرق لقراءتها. وهذا القصر يجعل من العمل مقتضياً لا يسمح بالدخول في التفاصيل والجزئيات الصغيرة، ويمكن تبرير ذلك بأنّها تتناول أشياء قصيرة ومادتها ذات نطاق محدود. إضافة إلى ذلك فإنّها تتميز بخاصية أخرى لا تقل أهمية هي خصوصية البناء وصرامته، والذي يقتضي بالضرورة وجود خيط رابط منذ البداية وحتى النهاية ليظل

القارئ على نفس الوتيرة ولا يقع في حالة من التشتت وضياح الأفكار. وهذه الخاصية تبرز أهمية النهاية التي ينتظرها القارئ وهي لحظة الكشف والتنوير، ولكنها غالبا ما تكون مفاجئة، ولعلّ هذا ما جعلها من محاسن الأقصوصة في رأي العديد من النقاد.

بناءً على ما تقدّم يتّضح أنّ الأقصوصة أو القصّة القصيرة هي جنس من أجناس القصّة المبنيّ على تصميم ومقوّمات أهمّها الوحدة والاختصار والتركيز والتكثيف، وهو ما يمكن الاستفادة منه في عمليّة إنتاج قصص الأطفال بمعنى أنّ هذه الأخيرة قد تفيد بما لها من مقوّمات في فعل الكتابة الموجّه للطفل، لكنّ فعل الأخذ هذا قد يتجاوز جنس الأقصوصة لينهل من أجناس قصصيّة أخرى طويلة. وبهذا المعنى يتّخذ الحديث عن الرواية مشروعية.

3/ الرواية تمثيلاً أقصى للتعدّد والتنوّع خطابياً:

تعدّ الرواية من أحدث الأجناس الأدبية التي عرفتها الثقافة العربية مقارنة بالأشكال الأدبية الأخرى. وكونها فناً حديث النشأة نسبياً فقد ظلت تتملص من كل تعريف دقيق شامل من شأنه أن يضبط قوانينها وبنيتها. ذلك أنّ الرواية باعتبارها نوعاً قصصياً في ماهيتها وأصولها ومدونتها وحتى في مجرد تعريفها تعريفاً جامعاً مانعاً محل خلاف بين الدارسين لها، وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى تباين النتائج المنسوب إليها وإلى اختلاف كُتّابها، وهو ما أدى إلى بروز أنواع من الرواية تختلف باختلاف الفئة الموجهة إليها أو المجال الذي كتبت فيه. ولهذا فإنّ أول ما يمكن مواجهته من إشكال تجاه الرواية هو ما يطرح من تساؤلات بخصوص تحديد مفهوم هذا الجنس ومقوماته الفنية خاصة وأنها لم تأخذ شكلها النهائي نتيجة لتداخل أجناس أدبية أخرى في نظامها.

على الرغم من صعوبة تعريف الرواية وتحديد مفهوم لها لكونها جنساً أدبياً متغير المقومات والخصائص ولتداخلها مع أجناس أدبية أخرى، فإنّ ذلك لا يمنع من البحث في مفهومها واستجلاء خصائصها من خلال التطرق إلى بعض التعريفات التي أوردها الدارسون في إطار حصر مفهوم للجنس الروائي. حيث أنّ الرواية في أبسط مفاهيمها هي "فنّ نثري، تخيلي، طويل نسبياً بالقياس إلى فنّ القصّة القصيرة".¹²

وفي مضمون تعريف آخر للرواية فإنّها اعتبرت أوسع من القصّة في أحداثها وشخصياتها، عدا أنها تشغل حيزاً أكبر وزمناً أطول، وتتعدد أنواعها فيكون منها الروايات العاطفية، الاجتماعية، النفسية والتاريخية.¹³

ونخلص في هذا السياق إلى أنّ الرواية هي قصّة لكن عناصرها من أحداث وشخصيات وأطر تكون أوسع منها في القصّة، تتفاعل عناصرها فيما بينها لتعطينا نصّاً روائياً. هذا ما يكشف على أنّ الرواية جنس قصصيّ من شأنه أن يوفر لمن يبتغي الكتابة للطفل مجموعة من التقنيات والفنيات التي تجري الخطاب مجرى التنوع والتعدد، فالملاحظ في الرواية أنها تنبني وجوباً على تعدد في الشخصيات وفي الأطر الزمانية والمكانية والأحداث وغيرها من عناصر المحكيّ الروائي وهو ما يعد خصوصية لجنس الرواية.

فكأنّ من يروم إنتاج عمل قصصي موجه للأطفال وباطلاعه على تقنيات الكتابة الروائية يتأهل إلى مرحلة القدرة على تصريف التنوع وإجرائه في الكلام، وذلك بفضل ما للرواية من قابلية للاستيعاب كل ما هو متعدد ومتنوع حتى وإن بلغ حدّ التنافر الظاهر.

4/ في ماهية قصص الأطفال:

يعالج هذا العنصر المقصود بقصص الأطفال أو القصّة الموجهة للطفل، ذلك أنّها نوع من أنواع القصّة غير محدد بجنس الكتابة بقدر ما هو محدد بمعطيات السنّ والعمر. وهذا من شأنه أن يحيل في غير إلماح على أنّ القصص من الكتابة في حدود هذا النوع وتقاليده ليس الفنّ أو الإغراق في التخيل أو إنطاق ما في الكلام من خفايا بقدر ما هو قصد تربوي تعليمي موجّه بمحدّدات ما قبلية تطبع العمل بطابع الدرس وإن بدا فيه ما قد يبدو من جنوح إلى التخيل والإضحاك والإمتاع. وهو ما يفرض بطبيعة الحال خصائص معيّنة على العمل القصصي وعلى فعل الكتابة ضمنه، وما يجعل أيضا من مكونات هذا العمل سواء أكانت من وضع الكاتب كاختيار الشخصيات والأطر وغيرها من عناصر الحكاية أو من اقتراح الناشر أو الكاتب في حدّ ذاته كإرفاق صور مصاحبة للمحكّي تتعاضد قصد نقل مضمون قيميّ للطفل المقصود وترسيخه لديه.

فقصص الأطفال في رأي من الآراء هي "كلّ ما يكتب للأطفال نثريا بقصد الإمتاع، والتسلية والتثقيف، ويروي أحداثا وقعت لشخصيات معيّنة في زمان ومكان ما سواء كانت هذه الشخصيات واقعية أو خيالية وسواء كانت تنتمي لعالم الكائنات الحيّة أو الجان وذلك كلّ بهدف بناء شخصية الطفل بناءً متكاملًا".¹⁴ من هذا المنطلق يتّضح أنّ القصّة الموجهة للطفل ليست مجرد عمل هادف للإمتاع فحسب، بل إنّها تعبّر عن مسار تعليمي بنائي يضع ضمن أولوياته مهمة بناء شخصية الطفل بناءً متكاملًا.

على هذا الأساس يجد البحث الحالي نفسه، ضمن هذه اللّحظة أمام مجموعة من الأسئلة التي تحرّك شواغله: ما هي قصص الأطفال؟ وما هي خصائصها؟ وأيّ المضامين يجب أن يُنقل إلى الطفل من خلالها؟ تُعتبر قصص الأطفال اليوم وسيلة من الوسائل التربويّة الفاعلة ذات الدور البارز في عملية تنشئة الطفل. فهي تطرح ممكنا مجاليا موزّعا بين الحيز النصي وزمن القراءة، لتنمية وعي هذا الطفل المتلقّي وتطوير إدراكه الاجتماعي. وبالرغم من تعدد الوسائط التي تقدّم من خلالها القصّة وكثرة الرقميّات وسيطرتها على الواقع المعيش ممّا قد يفيد انزياحا في القدرة التأثيرية للقصّة، فقد حافظت هذه الأخيرة على مكانة مميزة لدى الأطفال لا سيما وأنّها من الفنون القديمة التي مازالت تجذب إليها كلّ صاغٍ. فلا أقدم من فعل الحكّي مهما كانت الوسيلة التي تقدّم بها. ولعلّ في قدامته وارتباطه أوّل الأمر بما هو مسموع، ما جعل الجاذبية تدبّ فيه فلا تتركه.

لطالما كانت القصّة الوسيط الذي يحاول أن يجسّد رغبات الطفل وميولاته المختلفة، لذلك نجد أنّ الطفل ينجذب إلى الاستماع إليها وقراءتها لمتابعة أحداثها وحركة شخصياتها التي تعرض بأسلوب شائق يلامس شغفه ويبث فيه الأفكار والمبادئ والقيم التربوية، وذلك ما يسعى التأثير في نفسية الطفل الذي يتأتى من تضمن القصّة لمثيرات باعثة على تشكيل سلوك الطفل وبناء شخصيته. وقد يتوضح ذلك إذا ما انتبهنا إلى

حقيقة أخرى مفادها أنّ الطفل دائماً ما يميل إلى الاتحاد بشخصيات هذه القصص ومحاكاتها من خلال تقمص مواقفها.¹⁵

في عود على بدء، يمكن القول بعد مسار برهنة أنّ القصّة بهذا المعنى الذي فيه تتوجّه إلى جمهور الأطفال هي حكاية ذات غاية محددة لها هدف معرفي وقيمي، تتناول موضوعات ومسائل مختلفة لها صلة بتربية الطفل أي أنّ مضمونها يحمل مغزى تربويًا يستثير اهتمامه ويشغل تفكيره بعوالم خيالية وأخرى عجيبة يلتقي فيها بألوان من البشر والكائنات والأحداث المختلفة والمتعة. فهي بذلك "فنّ أدبي يهدف إلى كشف أو غرس مجموعة من الصفات والقيم والمبادئ والاتجاهات".¹⁶

وهذا يعني أنّ كثيراً من أهداف التربية يمكن أن تتحقق من خلال القصّة الموجهة إلى الطفل بوصفها أداة تنقل تجارب الإنسان وخبراته والكثير من صور الحياة الإنسانية والاجتماعية والثقافية، فيعيش الطفل مع محتوياتها ويتأثر بأحداثها وشخصياتها ويستخلص منها العبر ويكتسب القيم. كل هذا يكون من خلال بنية سرديّة تتوفر على جملة من المقومات التي تترابط فيما بينها لإبراز أو تجسيد هذه القيم.

وفي هذا الإطار تُعرّف القصّة في أدب الأطفال على أنّها "لون قرأني متعدد المضامين، يكتبها الكبار للأطفال، وتشتمل على عناصر بناء القصّة عند الكبار مثل: الحدث (الأحداث)، الشخصية (الشخصيات)، بيئة القصّة (الزمانية والمكانية)، السرد القصصي والأسلوبي، العقدة الفنية، الانفراج (الحل)، الهدف (الأهداف). ويراعي كاتب القصّة تبسيط تلك العناصر لتناسب المراحل والخصائص النمائية عند الأطفال وقدراتهم في الاستيعاب والتلقي".¹⁷

بمعنى أنّ قصص الأطفال بما تحمله من مضامين وأفكار مختلفة تحمل ما تحمله كل قصّة من خصائص حكاية سرديّة. ويجب أن تُناسب في ذلك مدارك الطفل وتوازي خبراته وتجاربه البسيطة بوصفها وسيطاً تربوياً فعّالاً يساهم في إكساب الناشئة المطلوب من القيم التربوية منذ مراحلها المبكرة مع العلم أنّ لهذا النشاط تاريخاً عريقاً.

وبالفعل فقد استخدمت قصص الأطفال منذ القدم لتحقيق أغراض أخلاقية ومعرفية، واستطاعت أن تنتزع لنفسها خصوصيّة ممّا يجعلها مختلفة عن قصص الكبار من حيث اتصالها بحياة الطفل وأحلامه ومساعدته على فهم الظواهر المحيطة به والتفاعل مع مجتمعه.

إنّ القصّة في هذا الإطار هي تعبير عن تجربة إنسانية في شكل حكاية تنقل من خلال لغة تصويرية موجهة إلى الطفل، لكنّ طفليّة القصّة بوصفها الخاصية الأبرز لا تعني إعفاء القصّة من شروطها أو محتواها وإنّما ارتباطها بالطفل يعد بمثابة الشرط أو القيد الذي يلزمنا بمزيد التدقيق ومراجعة المحتوى والحرص على تجنب الأخطاء، لأننا نقدم مادّة إلى فئة لا تملك وسائل التمييز أو النقد بل تتقبل كل ما يقدم إليها.

بناءً على ما تقدّم فإنّ ما أسلف ذكره، يعني أنّ القصّة الموجهة للطفل لا تكون هي إلاّ إذا توفرت على جملة من الخصائص والشروط ما يميزها عن القصّة الموجهة للكبار. ومن ثمّ فلغتها يجب أن تكون بسيطة

مستمدة من معجم الطفل غير ذات اتّصاف بتعقيد معجمي. كما يجب أن تعبر عن مغزى تربوي بالأساس مستمد من القيم المعترف بها، إذ "لا فرق بين قصة الكبار، وقصة الصغار إلا في التبسيط والتوضيح والابتعاد عن الغموض المفرط أو التعقيد المموج، ولا بد بالإضافة إلى ذلك أن تشمل القصة على مغزى أخلاقي يدفع الطفل إلى التفكير والتركيز".¹⁸

على هذا الأساس تحتل القصة الموجهة للطفل مرتبة الوسيط التربوي الذي له مكانة مميزة لدى الأطفال. ويتضمن أفكارا وأحداثا مشوّقة يستمتع الطفل بسماعها أو قراءتها بلغة سليمة وأسلوب بسيط غير معقد. وهو ما يتقاطع مع رأي "إيمان البقاعي" الذي حاولت فيه تقديم خصائص قصص الأطفال فعرفتُها بأنّها "فنّ ثري شائق، مروي أو مكتوب يقوم على سرد حادثة أو مجموعة من الحوادث مختلفة الموضوعات والأشكال، مستمدة من الخيال أو من الواقع أو من كليهما معا، لها شروطها الفنية المتعلقة كذلك بهذا النمو، ويشترط فيه أن تكون واضحة، سهلة، ومشوقة، وأن تحمل قيما ضمنية تساهم في نشر الثقافة والمعرفة بين الأطفال".¹⁹

على سبيل الإجمال لما ذكر آنفا والتعليق عليه، يمكن القول إنّ القصة الموجهة للطفل هي شكل من أشكال التعبير، قد تجمع بين الخيال والواقع وتطرح العديد من القضايا والموضوعات من خلال سرد مجموعة من الأحداث بأسلوب شيق وبسيط يثير انتباه الطفل ويناسب مداركه اللغوية والمعرفية، وتتجلى فيه القيم التربوية المراد إيصالها إليه. ولعلّ تشكل هذه القيم وتبلورها في العمل القصصي يكون من خلال نمو أحداثه وتحريك شخصياته نحو بلوغ القيمة التي يصبو إلى تبليغها كاتب القصة، فيتابعها الطفل بشغف ويتأثر بمضمونها خاصة إذا كانت الفكرة تجذب اهتمامه وتراعي خصوصية المرحلة العمرية ومتطلباتها.

وقد تعدد أنواع القصص المقدمة للطفل فنجد القصص الخيالية، والقصص الاجتماعية، والقصص الحيوانية، وقصص المغامرات... وبالرغم من اختلاف الخصائص المميزة لقصص الأطفال وتعدد أنواعها، فإنّ هذه القصص تعدّ بمثابة الوعاء الذي يتسع ليحمل أهم القيم الإنسانية أو الاجتماعية أو²¹ التربوية وغيرها. بحيث تكون القصة هي الوسيلة الأقدر على تجسيد هذه القيم في مرحلة الطفولة ودعوة الطفل إلى الاهتمام بها والتربية عليها.

ونخلص في إطار هذا العنصر من البحث إلى التنصيص على أنّ قصص الأطفال شكل جامع لثنائية المحكي والمرئي. يجسّد المحكي بمختلف مكوناته (الشخصيات، الأحداث والأطر) وكلّ ما ترمز إليه هذه العناصر من قيم ومعاني ودلالات النصّ المكتوب ومضمون القصة الموجهة للطفل. أما المرئي فيتجسّد من خلال الصورة البصرية التي تعدّ بمثابة الخيار الذي يتخذه الكاتب أو الناشر عند بلوغ العمل القصصي مرحلته الأخيرة. والصورة بهذا المعنى هي مادة تعبيرية تتناغم مع المكتوب وتعاضده في إنتاج المعنى. فكما أنّ للمكتوب نحوه ونظامه فإنّ للصورة عناصرها من ألوان وأشكال وأحجام، تحكمها علاقات دلالية.

وقد تتميز العلاقة بين المحكي والمرئي بمستوى دلالي مماثل، فالصورة في هذا الإطار تلعب دور المفسر فما الغز في المتن المكتوب يجد طريقه إلى التفسير فيستحيل المهم واضحا. وقد تلعب الصورة أيضا دورا تلخيصيا فتأتي لإجمال ما وقع تفصيله في السرد، فتقدم المحتوى عموما، هذا فضلا عن الوظيفة التخيلية التي قد تؤديها بمجرد أن تحتل موضع القادح لخيال الطفل، وليس الخيال وحده ما يتأهب لأن ينطلق، فالموهبة قد تتفجر لتطفو على السطح جرّاء تحقق أثر لدى الطفل، إذ قد يرغب في محاكاة الصور والرسوم مستغلا ما رشحه في ذهنه من محتوى قصصي. أمّا المحكي فهو يعد عماد القصة لأنه يتخذ مرتبة العمود الفقري للعمل عموما، وهو ما يتطلب من الكاتب اتخاذ تدابير وخيارات في الكتابة من قبيل الانتقاء المعجمي. فالطفل بحسب عمره ومدى تحصيله للملكة المعجمية يتفاعل مع عبارات بسيطة تركيبيا ومعجميا من السهل تخزينها.

خاتمة:

إنّ الدقة العلمية تفترض حدّا من الصرامة المفهومية والضبط الاصطلاحيّ الذي يعدّ ضرورة بحثية، لذلك خصصنا هذا البحث لضبط الحدود المفهومية لقصص الأطفال في علاقتها بالأجناس الأدبية الأخرى الأمر الذي دفعنا إلى الخوض في كلّ ما له صلة بالقصة باعتبارها مدار اهتمامنا بهدف تركيز مدلولات واضحة ورفع كلّ التباس في المعنى. وتبعاً لذلك أجملنا المصطلحات التي لا بدّ من الكشف عن معانيها وإبانة دلالاتها ما دامت كلّها عن القصة وما تكون. وانطلاقاً ممّا تقدم فإنّ الحاصل المعرفي في هذا البحث يتنوع وتتعدد نتائجه ومن أهمها أنّنا نثمن فيه مسار برهنته على أنّ القصة هي جنس جامع وأنّ قصص الأطفال تنهل من أجناس الكتابة الموجهة للكبار. فهي تستوعب في داخلها مجموعة من المقومات المأخوذة من أجناس القصة المختلفة وتنتقي بشكل اصطفائي ما يناسب حاجيات الطفل وقدراته على الإدراك وتطوع الأسلوب بما يلائم قدرة هذا الطفل على فهم الخطاب القصصي وتمثّل محتواه وبالتالي تقريب المضامين حسب ملكات ادراكه الحسية من ناحية ومن ناحية أخرى فإنّ قصص الأطفال هي المحمول عليها أن تكون محتوية على رسائل قيمية.

هوامش وإحالات المقال

هوامش وإحالات المقال:

¹ فؤاد قنديل، فنّ كتابة القصة، ط2 (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2010)، ص 40.

² محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، ط1 (تونس، لبنان، الجزائر، مصر، المغرب: الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، 2010)، ص 333.

³ لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ط1 (بيروت: دار النهار للنشر، 2002)، ص 133.

⁴ القاضي وآخرون، مرجع سابق، ص 333.

⁵ محمد القاضي، إنشائية القصة القصيرة، دراسة في السردية التونسية، ط1 (تونس: الوكالة المتوسطة للصحافة، 2005)، ص 144.

⁶ الصادق قسومة، الأقصوصة، مقوماتها وعينات من بداياتها، ط1 (تونس: الأطلسية للنشر، 2009)، ص 18.

⁷ René Godenne, *Histoire de la nouvelle française au XVII et XVIII siècles* (1), (Genève : Librairie Droz, 1970), P11.

⁸ عبد اللطيف محمد السيد الحديدي، الفن القصصي في ضوء النقد الأدبي، النظرية والتطبيق، ط1 (طلخا- منصور: دار المعرفة للطباعة والتجليد، 1996)، ص 121.

⁹ أحمد السماوي، في نظرية الأقصوصة، ط1 (صفاقس: مطبعة التفسير الفني، 2003)، ص 45.

¹⁰ صبري حافظ، "الخصائص البنائية للأقصوصة"، مجلة فصول، المجلد 2، العدد 4، (سبتمبر 1982)، ص 29.

¹¹ محمود طرشونة، "فتيات القصة القصيرة"، مجلة قصص، العدد 135، (01 مارس 2006)، ص 64.

¹² أمينة يوسف، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ط1 (سوريا: دار الحوار للنشر، 1997)، ص 21.

¹³ عزيزة مريدن، القصة والرواية (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1971)، ص 74-79.

¹⁴ الهامش محمد عبد الرزاق وآخرون، ثقافة الطفل، ط3 (عمان: دار الفكر، 2009)، ص 332.

¹⁵ أمل حمدي دكاك، القصة في مجلات الأطفال ودورها في تنشئة الأطفال اجتماعيا (دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب: وزارة الثقافة، 2012)، ص 40.

¹⁶ محمد يوسف نجم، القصة في الأدب العربي الحديث، (القاهرة: دار مصر للطباعة، 1952)، ص 46.

¹⁷ أحمد زلط، أدب الطفل العربي: دراسة معاصرة في التأصيل والتحليل، ط1 (القاهرة: دار هبة للنشر والتوزيع، 1998)، ص 164.

¹⁸ محمد مرتاض، من قضايا أدب الأطفال (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1994)، ص 142.

¹⁹ إيمان البقاعي، المتقن في أدب الأطفال والشباب لطلاب التربية ودور المعلمين، ط1 (لبنان: دار الراتب الجامعية، 2000)، ص 177.

قائمة المراجع:

المراجع باللغة العربية:

الكتب:

1. أحمد السماوي، في نظرية الأقصوصة، ط1 (صفاقس: مطبعة التفسير الفني، 2003).
2. أحمد زلط، أدب الطفل العربي: دراسة معاصرة في التأصيل والتحليل، ط1 (القاهرة: دار هبة للنشر والتوزيع، 1998).
3. أمل حمدي دكاك، القصة في مجلات الأطفال ودورها في تنشئة الأطفال اجتماعيا (دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب: وزارة الثقافة، 2012).
4. أمينة يوسف، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ط1 (سوريا: دار الحوار للنشر، 1997).
5. إيمان البقاعي، المتقن في أدب الأطفال والشباب لطلاب التربية ودور المعلمين، ط1 (لبنان: دار الراتب الجامعية، 2000).
6. الصادق قسومة، الأقصوصة، مقوماتها وعينات من بداياتها، ط1 (تونس: الأطلسية للنشر، 2009).

7. عبد اللطيف محمد السيد الحديدي، الفن القصصي في ضوء النقد الأدبي، النظرية والتطبيق، ط1 (طلخا- منصور: دار المعرفة للطباعة والتجليد، 1996).
8. عزيزة مريدن، القصّة والرواية (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1971).
9. فؤاد قنديل، فنّ كتابة القصّة، ط2 (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2010).
10. محمد القاضي، إنشائية القصّة القصيرة، دراسة في السردية التونسية، ط1 (تونس: الوكالة المتوسطة للصحافة، 2005).
11. محمد مرتاض، من قضايا أدب الأطفال (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1994).
12. محمد يوسف نجم، القصّة في الأدب العربي الحديث، (القاهرة: دار مصر للطباعة، 1952).
13. الهامش محمد عبد الرزاق وآخرون، ثقافة الطفل، ط3 (عمان: دار الفكر، 2009).

المعاجم:

1. لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ط1 (بيروت: دار النهار للنشر، 2002).
2. محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، ط1 (تونس، لبنان، الجزائر، مصر، المغرب: الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، 2010).

المجلات العلمية:

1. صبري حافظ، "الخصائص البنائية للأقصوصة"، مجلة فصول، المجلد 02، العدد 04 (سبتمبر 1982).
2. محمود طرشونة، "فتّيات القصّة القصيرة"، مجلة قصص، العدد 135، (01 مارس 2006).

المراجع باللغة الفرنسية:

1. René Godenne, *Histoire de la nouvelle française au XVII et XVIII siècles* (1), (Genève : Librairie Droz, 1970).